مقاربة تطبقية لـ:" بائيتين من بائية "أبو فراس الحمداني"

An applied approach to: “Two epidemiology from the epidemiology of Abu Firas Al-Hamdani”

ليلى مساعدية.

المؤسسة: جامعة 20 أوت1955سكيكدة l.messaadia@univ-skikda.dz

زهرة خفيف.

الجامعة 20 أوت1955سكيكدة zhrakhefif07@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/05/20 تاريخ القبول: 2024/09/13 تاريخ النشر: 2024/09/27

ملخص : تزايدت إشكالية قراءة النص الثراثي من المنهجيات التقلدية إلى المنهجيات الحديثة، وذلك مرجعه إلى موجة الحداثة وما أحدثته من خلخلة في المفاهيم والمصطلحات، ونتيجة خرقها لكل ماهو سائد ومألوف، وخروجها عن النمطية السائدة إلى المغايرة والتجديد، فكان للتراث والنص التراثي النصيب من ذلك.

وأمام هذا الطرح نقف عند إشكالية هامة مفادها:

- هل استطاعت المناهج الحداثية استقراء واستنطاق النص الثراثي العربي؟.
- وإلى أي مدى وفق المنهج الثقافي في مقاربة النص التراثي؟
- وماهي أهم الأنساق المتوارية في "بائية" "أبو فراس الحمداني"؟.
- الكلمات المفتاحية: الحداثة، النص الثراثي العربي، مناهج النقد، بائية"أبو فراس الحمداني" .

Summary: The problem of reading the heritage text has increased from traditional methodologies to modern methodologies, due to the wave of modernity and the disruption it caused in concepts and terminology, and as a result of its violation of everything that is prevailing and familiar, and its departure from the prevailing stereotypes to change and renewal, so the heritage and the heritage text had a share of that.

In view of this proposition, we stand at an important problem:

-Were the modernist approaches able to extrapolate and question the Arab heritage text?

-And to what extent according to the cultural approach in approaching the heritage text?

-And what are the most important hidden patterns in "Ba'ia" "Abu Firas Al-Hamdani?"

Keywords: modernity, the Arab heritage text, methods of criticism, the epidemiology of "Abu Firas al-Hamdani."

ليلى مساعدية. zhrakhefif07@gmail.com

مقدمة:

يعتبر التراث من أهم مقومات الأمم ورمز من رموز ثقافتها وهويتها، وأحد أهم مورثتها التي تنتقل عبر العصور ، وكانت النصوص الأدبية أحد أهم المورثات التي تنتقل عبر الأجيال من أحاجي وقصص وشعر...،ونظرا للتطور الحاصل مع موجة الحداثة وما بعدها التي ناهضت كل التقاليد البالية والقديمة وثارت عليها خاصة فيما يخص القصائد العمودية إلا أن التراث عامة والتراث الأدبي خاصة ظل محافظا على كيانه متمسكا بذاته، فأصبح بذلك نصوصا خصبة للقراء والدارسين ومجالا خصبا للدراسات النقدية التي وقفت عنده مطولا خاصة مع المناهج الحداثية ومابعد الحداثية.

2- التراث:

يذهب معظم النقاد إلى القول بأن التراث هو ما وصل إلينا من الماضي وتوارثناه عن طريق الأجداد عبر العصور والمراحل التي مرّت بها الأجيال السابقة وتناقلتها الأجيال اللاحقة ، يعرفه حسن حنفي بأنه:«كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة فهو إذن قضية موروث وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد من المستويات»[1].

هو ذلك الحاضر الموروث عن الحضارات السابقة، ويعرفه بعض النقاد بأنه:«كل ما خلفته الأمة من إرث ديني وثقافي وأدبي وفلكلوري وعلمي وحضاري، وأصل الكلمة مأخوذة من فعل " ورث" بإبدال الواو تاء، فالتراث بالمفهوم الحديث المتداول هو كل ما وصل إلينا مكتوبا في علم من العلوم أو محسوسا في

فن من الفنون مما أنتجه الفكر والعمل في التاريخ الإنساني عبر العصور، فلكل أمة إذن تراثها الذي هو ثمرة فكرها وعقائدها وحصيلة جهدها العقلي والروحي والإبداعي »[2].

التراث كل ما وصل إلينا من إرث ديني أو فلكلوري وكل ما كان مكتوبا، أو بمعنى آخر كل ما أنتجه الفكر الإنساني عبر العصور وتوارثته الأمم نتيجة الأفكار والعقائد السائدة في ذلك العصر.

ومادام لكل أمة تراثها الذي يميزها عن باقي الأمم والذي يعتبر جزءًا من هويتها، لذلك لا نستطيع العودة إلى التراث الماضي إلا من خلال القراءة وفهم حضارة الأمم السابقة، ومع التطور الحاصل وانتقال الأمم من عصر إلى عصر مغاير، ظهرت ثنائية التراث والحداثة التي تعتبر بؤرة جدل تحتاج إلى العديد من القراءات نظرا لأهمية هذين المصطلحين.

التراث يعبر عن الذات وعن الظروف التي جعلت الأفراد يمارسون عملية الإبداع لذلك نجد البعض يعرفه «بأنه نتاج بشري يعبر عن كينونة الذات ضمن شروط تارخية أسهمت في تشكيل خصوصيات الأفراد الذين أنجزوا بفعل الإبداع رؤيتهم الخاصة للوجود، وهو إن كان ثابتا لدى منتجيه، فهو متحول في الأزمنة والعصور...» [3].

ومنه فإن الإبداع هو المعبر عن رؤى وتطلعات تلك الأفراد من خلال انجازاتهم الإبداعية، وبما أن هناك ترابط بين الحداثة والتراث يتوجب علينا الوقوف عند مفهوم الحداثة .

1.2-الحداثة:

ظهرت الحداثة نتيجة التطورات الحاصلة في المجتمع ونتيجة رغبات الفرد في التغير والتطلع إلى أفق مغايرة وجديدة خروجا بذلك عن السائد والموروث وخروجا عن التقاليد السائدة والموروثة، فيرى النقاد أن« كل قديم من الشعر فهو محدث في زمانه بإضافة إلى من كان قبله».[4]

ارتبطت الحداثة في الشعر بالفترة الزمنية التي ولد فيها، وفي معنى آخر للحداثة هي الشذوذ والخروج عن المألوف، فالحداثة تعني« البَعْديَّة في علاقتها بحدّ فاصل، والشذوذ عن المعيار، والدونية عن النموذج، إنها تعاقبية ومطلقة، وهي تتربّص بكل شاعر يصل بعد زمن الكمال والمعيار تحديدا، سواءً أكانت المسألة تتعلق بأبي نواس وأبي تمام أم بالمتنبي»[5].

الحداثة تتربص بكل شاعر ولا تتعلق بشاعر معين.

ومن مفهوم الحداثة البحث عن أشياء لم يبحث فيها، وتمتاز بالغموض والمغايرة وهذا ذهب إليه الشاعر الفرنسي " مالارمية" الذي يمتاز شعره بالغموض الذي يعتبر من مميزات الشعر الحداثي«فإذا كانت الحداثة تفكيرا في اللامفكر فيه، فإنها شعريا بحث عما لم يبحث».[6]

ومنه فإن الحداثة بحث فيما لم يسبق البحث فيه،أما فولبيرفيرى أنها« التعصب للحاضر ضد الماضي».[7] وبهذا فهي ثورة على الماضي وتلك التقاليد المتوارثة.

أما فيما يخص الحداثة العربية فإن معظم الدراسات تجمع على أن الحداثة العربية جاءت نتيجة التأثر بالحداثة الغربية في النصف الثاني من القرن العشرين، فالحداثة عند العرب حسب أدونيس:«إلغاء تام للذاكرة الشعرية ومحاولة ابتداع ماليس له وجود قبلي عن طريق توحد وجودي بين الإرادة والشهود بين الحلم والتمثل»[8].

فهي محاولة إبداع ما ليس له وجود سابق؛ أي الخروج عن المألوف والسائد، وهي تصور جديد للكون والإنسان في مفهوم "غالي شكري"الذي فيرى«أن مفهوم الحداثة عند شعرائنا الجدد مفهوم حضاري أولا، وهو تصور جديد تماما للكون والإنسان والمجتمع، وهو وليد ثورة العالم الحديث في كافة مستوياتها الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية»[9].

فقد ظهرت الحداثة نتيجة التغيرات الحاصلة في المجتمعات على جميع المستويات، ويعود الفضل في انتقالها من الثقافة النظرية الغربية إلى الثقافة العربية لـ: " الشاعر والناقد العربي " "علي أحمد أدونيس" الذي اعتبر الحداثة «رؤيا جديدة، وهي جوهريا رؤيا تساؤل واحتجاج، تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد، فلحظة الحداثة هي لحظة توتر، أي التناقص والاصطدام بين البنى السائدة في المجتمع وما تتطلبه حركته العقيمة الغبيرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها».[10]

تحمل الحداثة في أبعادها رؤية لما يجب أن يكون وفي النفس الوقت معارضة لما هو سائد؛ في التناقض والاصطدام بين ما هو سائد في المجتمعات ولما تحمله من نظرة مغايرة.

ومنه فإن الحداثة تحمل في ثناياها ثورة على التقاليد والأشياء المتعارف عليها ورغبة في التطلع والبحث عن التجديد والتخلص من قيود الماضي، إلا أن هناك علاقة وطيدة بينها وبين هذا الماضي الذي ثارت عليها لكنها في الوقت ذاته تلجأ إلية بنظرة جديدة كونه جزءا لا يتجزأ من الثقافة سواء العربية أو الغربية.

علاقة الحداثة بالتراث:

التراث من بين الأشياء التي تحافظ على الهوية أحد أهم رموزها الأصيلة والمتجذرة، ورغم تميز الحداثة بالثورة على التقاليد المتوارثة، إلا أن هناك علاقة وطيدة بينها وبين التراث، وهذا ما ذهب إليه "جابر عصفور":« دعنا أولا نستبعد مجموعة من المفاهيم التي لا أظن أن لها علاقة بالحداثة أولها قصة العداء بين التراث والحداثة... كلمة الحداثة نفسها مرتبطة بالتراث وأنّها تردنا إلى الخصومة بين القدماء والمحدثين »[11].

استبعد فكرة العداء بين التراث والحداثة، بل بضرورة الصلة بينهما " فجابر عصفور":"يعتقد بأنه يتوجب أن تكون هناك صلة بين الحداثة والتراث نتيجة، ذلك أن التراث ينطوى على عناصر كثيرة متفاعلة ومتعارضة متصارعة، يرجع ذلك إلى طبيعة الظروف الاجتماعية والتارخية التي تجعل عناصر من التراث تتضاد مع عناصر أخرى، والحداثة بدورها تنبعث منها مجموعة من التقاليد الإيجابية يمكن

أن نسميها بتقاليد التجاوز، تبدأ من الذين خرجوا على الإطار الجامد للقصيدة العربية، ابتداء من أبي نواس إلى أبي العلاء".[12]

ومن الأسباب التي جعلت الحداثة والتراث على صلة دائمة هي: التعارض والتفاعل وذلك الصراع، نتيجة ظروف مختلفة، ورغم خروج الحداثة عن السائد ومعارضته إلا أن لها ايجابيتها التي تميزها، ما يمكن تسميته" بتقاليد التجاوز"، بداية بـ:"أبي النواس" وغيره من الشعراء الذين تجاوزوا كل ما كان سائدا في عصورهم.

فالعلاقة بين الحداثة والتراث ليست إنكارا كليا له، بل هي علاقة اتصال وانفصال، فكل حداثة هي حداثة تراثية، ويظن " جابر عصفور"« في علاقة الحداثة بالتراث علينا أن نفهم أنّ هذه العلاقة ليست علاقة نفي مطلق و إنما علاقة اتّصال وانفصال بالعناصر الإيجابية في التراث، تلك العناصر التي تدفع إلى التجاوز وبهذا المعنى فكل حداثة في آخر الأمر، خصوصا الحداثة العربية، وهي حداثة تراثية بالمعنى الخلاق لكلمة تراث وهذا ليس أمراً خاصا بالعرب، فكلمة (مودرنيزم) الأوربية لو تأملناها جيّدا لوجدناها تنطوي على عناصر تراثية...».[13]

لا يمكن للحداثة أن تنفصل عن التراث سواء في الثقافة الغربية أو العربية واستحالة التخلص منه نتيجة العناصر الإيجابية وبهذا فهي حداثة تراثية بالمعنى المفهوم خاصة الحداثة العربية،«فالحداثة لا يمكن إلاّ أن تكون تراثية بالمعنى».[14]

الحداثة مرحلة انتقالية بين الماضي والمستقبل والانتقال من الجمود والسكون إلى التغيير والابتكار والخلق فقد وقعت الحداثة « في اللحظة التارخية التي تتوتر بين الماضي والمستقبل. هي لحظة متوترة يتخلق فيها مشروع يحاول أن يتجاوز عناصر الماضي الجامدة في الحاضر إلى مستقبل ينبغي أن يتحقق. وبهذا المعنى فالحداثة باستمرار مشروع متجاوز ينفي المشاريع القديمة ويستمد فاعليتها من قدرته على حلّ المشاكل التي عجزت المشاريع السابقة أو المعاصرة عن حلّها».[15]

تجاوزت الحداثة عناصر الماضي ونفت تلك المشاريع القديمة التي عجزت عن حلّ مشاكلها، فالحداثة « تمثل تعارضاً بين ماضٍ ومستقبل من ناحية، وفي الوقت نفسه تمثل علاقة متوترة بين آخر تراثي وآخر غربي من ناحية أخرى».[16]

عارضت الحداثة العربية الماضي وثارت عليه، فكانت متوترة بين ثقافة عربية وثقافة غربية إلا أنها حملت رؤية مستقبلية تبعث على التجديد والحركية الدائمة والبحث عن المغايرة وكسر النمطية السائدة.

بائيتين من بائية "أبو فراس الحمداني":

مع موجة الحداثة عرف النقد المعاصر تحولات كبيرة أطلقت العنان للنقّاد للانفتاح على تقنيات وآليات جديدة في قراءة النصوص الأدبية ، وكسر الذوقية الساذجة في قراءة الشعر، فظهر بذلك العديد من المناهج الغربية المناهضة والمعارضة والتي تعتمد آليات مختلفة في استنطاق النصوص والكشف عن مكامنها الظاهرة والباطنة، فكان من بين المناهج التي لعبت دورا بارزا في قراءة النصوص والبحث عن المضمر الخفي المتواري خلف عباءة الجمالية التي اعتنت بها المناهج الأدبية ردحا من الزمن، مهملة القبحيات المتوارية خلف الجمالية، وفي هذا المقام سنقف عند قصيدتين من التراث حملا العديد من المعاني والرموز التي تستعدى فك شفراتها ألا وهما بائيتا" أبو فراس الحمداني" الشاعر العظيم بعظمة روملياته التي حملت العديد من الجوانب المتميزة.

الأنساق الثقافية في بائتين من بائية "أبي فراس الحمداني":

من خلال استقراء النص والوقوف عليه تبين لنا العديد من الأنساق المتوارية اجتماعية ثقافية متجذرة في الذات العربية، وكذلك أنساق سياسية متعلقة بالسلطة ونظام الحكم.

2.2-النسق السياسي:

بداية حينما نتأمل فاتحة القصيدة ندرك أن فيها لوم وعتاب وتغير وجهة نظر في من احتل في نفس الشاعر مكانا عظيما، حيث يقول:

أَسَيْفَ الْعدَى، وَقَرِيعَ الْعَرَبْ عَلاَمَ الْجَفَاءُ! وَ فِيمَ الْغَضَبْ!؟
وَمَا بَالُ كُتْبِكَ قَدْ أَصْبَحَتْ تَنكَّبُنِي مَعَ هذي النُّكَبْ
وأنت الْكَرِيمُ، وأنْتَ الحَليمُ، وَأَنْتَ الْعَطُوفُ، وَأَنْتَ الْحَدِبْ
وَتَدْفَعُ عَنْ حَوْزَتَيَّ الْخُطُوبَ وَتَكْشِفُ عَنْ نَاظِرَيَّ الْكُرَبْ[17]

نجده يناشد سيف الدولة ويتسأل عن سبب الجفى والغضب وهو الحليم الكريم وهى أنساق ثقافية ظاهرة تخفي أنساق متوارية خلفها، أحالت إلى أن "سيف الدولة"لم يقم بفدية أبي فراس من السجن لدى الروم، وكذلك توتر أبي فراس وقلقه من هذا الانقلاب عليه دون سبب يذكر وإن دل هذا فإنما يدل على زيف العلاقات، فبعد أن كان القريب الحبيب أصبح في لحظة ينسى ويترك.

ويستمر في ذكر محاسن وعظمة الملك ولومه وعتابه في الوقت ذاته فبعد أن أعلى من شأنه نجده ينزله أسفل الرتب من خلال عدم مبلاته برميه في السجن وتركه أسيرا، يقول الشاعر:

وَ إِنَكَ لَلْجَبلُ الْمشْمَخِـ ـرُّ لِي بَلْ لِقَوْمِكَ بَلْ لِلْعَرَبْ
عُلًى تُسْتَفَادُ، وعَافٍ يُفَادُ، وعِزٌّ يُشَادُ، ونُعْمى تُرَبْ
وَمَا غَضَّ مِنِّيَ هَذَا الإِسَارُ وَلَكِنْ خَلَصْتُ خُلُوصَ الذَّهَبْ
فَفِيمَ يُعَرِّضُنِي بِالخُمـُو لِ مَوْلًى بِهِ نِلْتُ أَعْلى الرُّتَبْ؟[18]

مقاربة تطبقية لـ:" بائيتين من بائية "أبو فراس الحمداني":

يستمر في العتاب واللوم ويتمنى لو أن الملك بدوره يعاتبه، ففي العادة لا نعاتب إلا من لهم شأن عظيم لدينا وهو دليل على الحب والمودة والإخلاص، لدرجة أن "أبي فراس" يرجع النقص منه حتى يرضى عنه "سيف الدولة "متمنيا نكران الجميع على أن ينكره صديقه الذي لم تتغير مشاعره تجاهه رغم الخطوب ورغم الوشاة.

يقول "أبو فراس":

أَتُنْكِرُ أَنِي شَكَوتُ الْزَّمَانَ وَأَنّي عَتَبْتُكَ فِيمنْ عَتَبْ!
فهلاَّ رَجَعْتَ فأَعْتَبْتَنِي وَصيّرْتَ لَي وَ لِقَوْمِي الْغَلَبْ!
فَلاَ تَنْسِبَنَّ إِليَّ الْخمُولَ أَقَمْتُ عَلَيْك فَلَمْ أَغْتَرِبْ
وَأَصْبَحْتُ مِنْكَ فَفَضْلٌ يَكُونُ وَإِنْ كَانَ نقصٌ فأنتَ السَّبَبْ
وَمَا شِكَّكَتْنِي فِيكَ الْخُطُوبُ وَلاَ غَيَّرَتْنِي فَيكَ النَّوبْ
وَ أَسْكُنُ مَا كُنْتُ فِي ضَجْرَتِي وَأَحْلُمُ مَا كُنْتُ عِنْدَ الْغَضَبْ
وإِنَّ"خُرَاسَانَ" إِنْ أَنْكَرَتْ عُلاَيَ فَقَدْ عَرَفَتْهَا "حَلَبْ"[19]

وفي ذلك تسأل عن سبب نكرانه أتراه من نقص جدٍّ أومن قص أب، فحتى قرب النسب لم يشفع له عند سيف الدولة حيث يقول:

وَمِنْ أَيْنَ يُنْكِرُنِي الأَبْعَدُونَ أَمِنْ نَقْصِ جَدٍّ أَمِنْ نَقْصِ أَبْ؟!
أَلَسْتُ وإِيَّاكَ مِنْ أُسْرَةٍ وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ قُرْبُ النَّسَبْ
وَدَارٍ تَنَاَسبُ فِيهَا الْكِرَامُ وَتَرْبِيَةٍ وَمَحَلٍّ أَشِبْ!
وَنَفْسٍ تَكبَّرُ إِلاَّ عَلَيْكَ وَتَرْغَبُ إِلَّاكَ عَمَّنْ رَغِبْ !
فَلاَ تَعْدِلَنَّ ـ فِدَاكَ ابْنُ عَمِّـ كَ لاَ بَلْ غُلاَمُكَ ـ عَمَّا يَجِبْ
وَأَنْصِفْ فَتَاكَ فَإِنْصَافُهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ الْمُكْتَسَبْ
وَكُنْتُ الْحَبِيبَ، وكُنْتُ الْقَرِيبَ لَيَالِي أَدْعُوكَ مِنْ عَنْ كَتَبْ
فَلَمّا بَعُدْتُ بَدَتْ جَفْوَةٌ وَلاَحَ مِنْ الأَمْرِ مَا لَا أُحِبْ
فَلَوْ لَمْ أَكُنْ بِك ذَا خِبْرَةٍ لَقُلْتُ: صَدِيقُكَ مَنْ لَمْ يَغِبْ[20]

حملت هذه القصيدة نسقا سياسيا تبين لنا من خلال نكران الملك للشخص قريب احتل مكانا عظيما في نفسه زمنا إلا أنه حينما أضحى أسيره لم يبالي به ولم يفك أسره بفداء، بل تركه دون لوم أعتاب حتى.

ولعل القصيدة التالية تأكد هذا النسق وبقوة أكثر وتحمل أيضا شموخ وعزة "أبي فراس" رغم الأسر حيث يقول:

أَمَا لِجَميلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوابٌ وَلاَ لِمُسيءٍ عَنْدَكُنَّ مَتَابُ؟[21]

قدم الذنب على الإساءة رغم علمة بأنه ليس مذنبا إلا أنه يطلب التوبة والمغفرة لعله يجد عند سيف الدولة القبول.

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَهْوِى هَوّاهُ خَرِيدَةٌ وَلَقَدْ ذلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعّابُ

وَلَكِنَنِي -وَالْحَمْدُ للهِ- حَازِمُ أَعِزُّ إَذاَ ذلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ

وَلاَ تَمْلِكُ الْحَسْنَاءَ قَلْبِي كُلَّهُ وَإِنْ شَمِلَتْهَا رِقَّةٌ وَشَبَابُ[22]

ويقول:

وَأَجْرِي وَلاَ أُعْطِي الْهَوَى فَضْلَ مِقَودِي وَأَهْفُو وَلاَ يَخْفَى عليَّ صَوَابُ

إذا الْخِلُّ لم يهجرك إلا ملالة فليس له إلا الفراق عتاب[23]

يوحي القول بمدي بقدرة الشاعر حسن التدبر وتملك الذات وتسيرها وفق ما يريد فيترك لكل هفوات جانب من الحيطة والحذر كالفارس الشهم يحتاط دوما، وإذا تركه المحب ضجرا وملالة فليس له إلا الفراق عتاب.

نسق سياسي يظهر من خلال أن "أبي فراس" لم يستمع لكلام الوشاة الذين وجدوا أذان صاغية لدى "سيف الدولة" حيث يقول:

وَرُبَّ كَلاَم مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لُوحِ الْهَجِير ذُنَابُ [24]

" أبو فراس " لم يستمع للوشاة، على عكس " سيف الدولة" الذي لم يقم بفدية "أبو فيراس" وتركه في السجن بسبب الوشاة فنجده يذكر صفات "سيف الدولة" ويمدحه ويذكره بإخلاصه له وأنه كان ساعده الأيمن فكيف له أن يخونه، فالكلاب هم الوشاة والآساد تمثلت في "أبي فراس" و"سيف الدولة"، ونجده يبكي على أنه لم يعد ينفع الناس وفي ذلك دليل على قيم الفروسية التي تحلى بها ونبل وكرم أخلاقة، فهو الذي لا يسمح بإصابة عورته ولا يصيب عورة غيره.

وهذا ما أحالت إلية الأبيات التالية:

إِلَى اللهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلٍ تَحَكَّمُ فِي آسَادِهِنَّ كِلَابُ

تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ لَدَيَّ، وَلَا لِلْمُعْتَقِينَ جَنَابُ

وَلَا شُدَّ لِي سَرْجٌ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ وَلاَ ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قِبَابُ

وَلا برقتْ لِي فِي اللِّقَاءِ قَوَاطِعٌ وَلاَ لَمَعت لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ

سَتَذْكُرُ أَيَّامِي "نُمَيرٌ"و"عامرٌ". وَ"كَعْبٌ" عَلَى عِلاَّتِهَا و" كِلاَبُ"

أَنَا الْجَارُ لاَ زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمُ وَلَا دُونَ مَالِي لِلْحَوَادِثِ بَابُ

وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمُ أُصِيبُهَا وَلاَ عَوْرَتِي للطَّالِبِينَ تُصَابُ

وَأَسْطُو وَحُبِي ثَابِتٌ فِي صُدُورِهِمْ وَأَحْلَمُ عَنْ جُهَّالِهِمْ وَأُهَابُ[25]

نستشف من خلال قوله أن الخطاب موجه إلى "سيف الدولة" يلومه في لين مع إظهار المحبة فهو سيفهم في الوغى وماهم فاعلون بدونه إذا كسروا فهو ناصرهم وحاميهم.

يقول :

بَنِي عَمِّنَا مَا يَصْنَعُ ٱلسّيْفُ فِي الْوَغَى إِذَا فُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَّذُبَابُ؟

بَنِي عَمِّنِا لاَ تُنكِرُوا الْوُدّ إِنَّنا شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابُ

بَنِي عَمِّنَا نّحْنُ السَّوَاعِدُ والظُّبَا وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرابُ

وَإِنَّ رجَالاً مَا ابْنُهُمْ كَابْنِ أخْتِهِمْ حَرِيُّونَ أَنْ يُقْضَى لَهُمْ وَيُهَابُوا[26]

هاهو ذا يلومهم ويعاييرهم فكيف للروم أن تفدي أسيرها وهم لا يفعلون؛ فأي عذر لكم فهذا عار وعيب عليكم.

فَعَنْ أَيِّ عُذْرٍ إِنْ دُعُوا وَدُعِيتُمُ أَبَيْتُمْ، بَنِي أَعْمَامِنَا، وَأَجَابُوا؟

وَمَا أدَّعي مَا يَعْلَمُ اللَّهُ غَيْرَه ُ رِحَابُ"عَلِيٍّ" لِلْعُفَاةِ رِحَابُ

وَأَفْعَالُهُ لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَة ٌ وَأَمْوَالُهُ لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بَكَفَّيَ صَارِمٌ وَأَظْلم فِي عَيْنِيَّ مِنْهُ شِهَابُ[27]

يسعى يثبت أبي فراس لإثبات فضائله "لسيف الدولة" ويذكره بها عله يسرع في فديته لكنه أبطأ عنه والموت قريب ويناشده بحق الإسلام إن كان قد نسي النسب و الود القديم والمحبة التي كانت ويأمل بعدم تغيرها وراضي بأي حالة من الأحوال، يذكره بإمكانية العيش في الروم سيدا كونهم أخوله لكنه فضل "سيف الدولة" عليهم فهو يهجوهم في عقر دارهم ويحاربهم رغم قرب النسب.

وَأَبْطَأُ عَنِّيَ وَالْمَنَايَا سَرِيعَةٌ وَلِلْمَوتِ ظُفْرٌ قَدْ أَطَلَّ وَنَابُ

فَإِلاَّ يَكُنْ وُدٌّ قَدِيمٌ عَهِدْتُهُ وَلاَ نَسَبٌ بَيْنَ الرِّجَالِ قرَابُ

فَأَحْوَطُ لِلإِسْلاَمِ أَنْ لَا يُضِيعَني وَلِي عَنْهُ فَيهِ حَوْطَةٌ ومنابُ

وَلَكِنَّنِي راضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ لِيُعْلَمَ أيُّ الْحَالَتَيْنِ سَرَابُ

وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بالْقَليلِ مَحَبَّةً لَدَيْهِ وَمَادُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ

وَأَطْلُبُ إِبْقَاءً عَلَى الوُدِّ أَرْضَهُ وَذِكْرِي مُنىً في غَيْرِهَا وطِلاِبُ

كَذَاكَ الوِدَادُ الْمَحْضُ لا يُرْتَجَى لَه ُ ثَوَابٌ وَلاَ يُخْشَى عَلَيْهِ عَقَابُ

وَمَا أَنَا بالبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوةٍ ضَعِيفٌ هَوً يُبْغَى عَلَيْهِ ثَوَابُ [28]

كان "أبو فراس" يخاف الوشاة وهو بالقرب من سيف الدولة فكيف الآن وهو بعيد، وما هذا التغير والجفى منك ويعاتبه على نكران الجميل بعد أن بذل نفسه فيما يريده "سيف الدولة"، نكران الجميل، تحصر وألم وتمني المشاعر الصادقة من الملك لكنه قبل بغير ذلك بسب الوشاة ومخافة

"سيف الدول" من منافسة "أبي فراس" له والأبيات التالية تؤكد صدق مشاعر "أبي فراس" والجحود والنكران من الملك.

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْهَجْرَ، وَالْشَّمْلُ جَامِعٌ، وَفِي كُلِّ يَومٍ لُقْيةٌ وَخِطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكُ قَيْصَرٍ وِلِلْبَحْرِ حَوْلِي زَخْرةٌ وعُبَابُ؟
أَمِنْ بَعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ أُثَابُ بَمُرِّ الْعتْبِ حِينَ أُثابُ؟
فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامَرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
إَذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الْتُّرَابُ تُرَابُ
فَيَا لَيْتَ شُرْبِي مَنْ وِدَادِكَ صَافِيًا وَشُرْبِيَ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ سَرَابُ[29]

قمة الصدق والوفاء للسيف الدولة حتى أنه يفضله على نفسه.

حملت القصيدتان نسق سياسي خفي توارى خلف المجازات والاستعارات، وذلك الجانب المظلم في السياسة والمنافسة على مقاعد السلطة من خلال الوشاة الذين فرقوا بين "سيف الدولة"و" الملك"، وأن في جانب الحكم يتحول فيه القريب إلى بعيد والبعيد إلى قريب فلاشيء ثابت ولا إخلاص ولا وفاء.

3.2-نسق الأنا المتعالية:

أبو فراس شاعر جمع بين الليونة والخضوع في قوله:

أَمَا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوابٌ وَلاَ لِمُسِيءٍ عَنْدَكُنَّ مَتَابُ

وبين القوة والاعتزاز بالذات فهو العزيز الذي لا يذل حتى وإن كان أسيرا متمكن من ذاته يحسن قيادها في جميع الأمور، حتى أن الحسناء لن يعطيها قلبه كله حتى وإن ملكته برقتها وعذوبتها، حيث يقول:

لَقَدْ ظَلَّ مَنْ تَحْوِى هَوَاهُ خَرِيدَةٌ وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابُ
ولكنَّنِي -والْحَمْدُ للَّهِ – حَازِمٌ أَعِزُّ إِذَا ذَلّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلاَ تَمْلكُ الْحَسْنِاءُ قَلْبِي كُلَهُ وَإِنْ شَمِلَتْهَا رِقَّةٌ وَشَبَابُ
إِذَا لَمْ أَجِدْ مِنْ بَلْدَةٍ مَا أُرِيدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكابُ
وَلَيْسَ فِرِاقٌ مَا اسْتِطَعْتُ فإِن يَكُنْ فِراقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابْ
وَأَجْرِي وَلاَ أُعْطِي الْهَوَى فَضْلَ مِقَودِي وَأَهْفُو وَلاَ يَخْفَى عليَّ صَوَابُ[30]

فالشاعر يكون حيث يكون عزيز النفس غير مهان، فإن لم يجد في مكان ذلك اعتزم الرحيل إلى سواه على أن يكون ذليلا في قوم، أنكروا فضله .

ويقول:

وَلَيْسَ فِرِاقٌ مَا اسْتِطَعْتُ فإِن يَكُنْ فِراقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابْ
صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِي بَقِيّةٌ قَؤُولٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ

وقورٌ وأحْداثُ الزَّمَانِ تَنُوشُنِي وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جَيْئَةٌ وَذَهَابُ
وَأَلْحَظُ أَحْوَالَ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ بِهَا الصِّدْقَ صِدْقٌ وَالْكِذَابُ كِذَابُ
بِمَنْ يَثِقُ الإِنْسَانُ فيمَا يَنُوبُهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ؟[31]

فهاهو رغم تغير الزمان والأحوال وتقلب الأصدقاء وانعدام الثقة بمن حوله إلا أنه صبور ورغم أن الناس أصبحوا ذئاب، تغابى عن أفعالهم فهو على علم بما يفعلون ويقولون لكنه لا يبالي بهم.

وَقَدْ صَارَ هَذاَ النَّاسُ إلاَّ أَقَلَّهُمْ ذِئَاباً عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ
تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غَبَاوَةً بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصًى وَتُرابُ
وَلَوْ عَرَفُونِي، حَقَّ مَعْرَفَتِي بِهِمْ، إذاً عَلِمُوا أنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا "الوشاة"
وَمَا كُلُّ فَعَّالٍ يُجَازِي بِفِعْلِه ِ وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ[32]

ونجده في بيت آخر متعالي الثقة بنفسه فهو العدو المحبوب رغم قتاله للأعداء وعند السماحة والحلم نجد الهيبة، ولعل هذا من نبل أخلاقة فهو يعتز ويتباهى بذاته ويمدح نفسه،حيث يقول:

وَأَسْطُو وَحُبِي ثَابِتٌ فِي صُدُورِهِمْ وَأَحْلُمُ عَنْ جُهَّالِهِمْ وَأُهَابُ[33]

قمة المدح للذات والثقة بالنفس والهيبة والسماحة والافتخار في هذا البيت.

يعتز بنفسه ويترفع عن كل مذلة يحافظ على مكارم أخلاقه، ويأمل خيرا في من خانوا وباعوا فيجد لهم ألف عذر وألف حجة فإن تغيروا فلا شك أن السبب الوشاة.

الهوامش والإحالات:

1-حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 1992، ص13.

2-عبد العزيز بن عثمان التويجري، التراث والهوية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، مطبعة يسيكو، الرباط، المملكة المغربية، 2011، ص12.

3-ربيحة بزان، جدل التراث والحداثة في الخطاب النقدي عنج جابر عصفور، مذكرة نيل شهادة الماجستير، تحت إشراف محمد زلاقي، كلية الآداب واللغات، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2010، ص50-51.

4- أبو الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله، وعلق حواشيه:محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ج1، (د،ط)، 2007م، ص159.

5- جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، تتقدمه مقالة حول خطاب نقدي، تر: مبارك حنون، محمد الوالي، محمد أرواغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، (د،ط)، 1996، ص27.

7- منصور زيطة، مصطلح الحداثة عند أدونيس، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في الأدب العربي، تخصص: النقد العربي ومصطلحاته، إشراف، عبد الحميد هيمة، قاصدي مرباح، ورقلة، 2012، ص20.

8- م، ن، ص22.

9-علي أحمد أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، من أجل ثقافة عربية جديدة، دار العودة، بيروت، ط1، 1980، ص321.

10-غالي شكري، بين الحداثة وما بعد الحداثة، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ط1، 1999، ص105.

11- علي أحمد أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، من أجل ثقافة عربية جديدة، مرجع سابق، ص321.

12- جهاد فاضل، أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، دط، دت، ص51-52.

13- م ن، ص51.

14- م ن،51

15- م ن، ص52.

16- م ن، ص 52.

17- م ن، 52.

19 - أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م، ص24.

20- م ن، ص24.

21- أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص25.

22- م ن، ص26.

23- أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص45.

24- م ن، ص45.

25- م ن، ص45.

26-م ن، ص46.

27- م ن، ص46.

28-أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص47.

29- م ن، ص47.

30- م ن، ص47.

31-أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص48.

32- أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص45.

33-م ن، ص45.

34- أبو فراس الحمداني، المرجع السابق، ص46.

35- م ن، ص46.

- المصادر والمراجع:

01- جهاد فاضل، أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، دط، دت.

02- أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م.

03-عبد العزيز بن عثمان التويجري، التراث والهوية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، مطبعة يسيكو، الرباط، المملكة المغربية، 2011.

04-ربيحة بزان، جدل التراث والحداثة في الخطاب النقدي عنج جابر عصفور، مذكرة نيل شهادة الماجستير، تحت إشراف محمد زلاقي، كلية الآداب واللغات، جامعة فرحات عباس، سطيف، .2010

5- أبو الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله، وعلق حواشيه:محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ج1، (د،ط)، 2007م.

6- جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، تتقدمه مقالة حول خطاب نقدي، تر: مبارك حنون، محمد الوالي، محمد أرواغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، (د،ط)، 1996.

7- منصور زيطة، مصطلح الحداثة عند أدونيس، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في الأدب العربي، تخصص: النقد العربي ومصطلحاته، إشراف، عبد الحميد هيمة، قاصدي مرباح، ورقلة، 2012.

8-علي أحمد أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، من أجل ثقافة عربية جديدة، دار العودة، بيروت، ط1، 1980.

9- غالي شكري، بين الحداثة وما بعد الحداثة، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ط1، 1999.

10-حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 1992.